العملية التعليمية

في حياة الأمة الإسلامية

بقلم

الفقير إلى عفو مولاه الغني

محمد بن علي بن محمد باعطية الدوعني

اسم الكتاب: العملية التعليمية في حياة الأمة الإسلامية
اسم المؤلف: محمد بن علي بن محمد باعطية
الطبعة الأولى: ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م
عدد الصفحات: ٥٦ صفحة
قياس القطع: ١٢ × ١٧

جميع حقُوقُ الطبعِ محفُوظةٌ للمُؤلّف

مقدمة

بسم اللَّه الرَّحمن الرَّحيم

الحمد لله الذي أمر عبادَه بالعلم والعمل،فقال في محكم كتابه:﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾[1].

فقرن العلمَ بالعمل، وما أعظم ذلك الاقتران، فإن العلمَ ينادي بالعمل فإن أجابه وإلاّ ارتحل، فالملازمةُ لا بد منها، وهي أصل ترسيخ العلوم، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، بعثه ربه هادياً وبشيراً وداعياً إليه بإذنه، ومعلماً للخير في جميع أوقاته ، **وبعد:**

فقد دعاني للكتابة ما تمخض عندي من نظرة عابرة في مجال التعليم في عصرنا الحاضر، والضعف الذي اعترى المتعلمين فيه، والقصور الذي يُلاحظ على أبناء الجيل المتعلمين، وهذا

(١)سورة محمد آية (١٩).

الضعف الذي أعنيه واضحٌ تمام الوضوح لكل ذي بصيرة ورؤية، ولا يُظن بي أني متحامل أو مخذّل لما يُبذل في هذا العصر من أموال هائلة تتحملها الدول في سبيل تعليم أبنائها، وما ترصُدُه من الميزانيات الضخمة للمراحل التعليمية، ولكنها الحقيقة المُرَّة التي نشاهدها في أبنائنا، وفي أهم الواجبات التي يُمليها عليهم دينُهم، ويحتّمها عليهم إيمانُهم، بل والضعف المُسْتَمْري في فهم لغتهم ومفرداتها، وتقويم ألسنتهَم بالنطق بها صحيحةً واضحةً جليّة، بل يتخرج الطالب من مراحل التعليم الثلاث وهو لا يعرف إلا القراءة والكتابة، وهذا القصور الملاحظ في المجموع الكلي لأبناء الأمة لا بُدّ أن يكون له أسباب، ولعلها الأسبابُ الرئيسةُ في قصور العملية التعليمية في عصرنا الحاضر، لعلي أصيب أو أخطئ في حصرها، وهذه الأسباب فيما يبدو لي هي :

١ - انعدام الإخلاص من قبل المعلِّم والمتعلِّم.

٢-فصل العملية التربوية عن العملية التعليمية.
٣- فقد القدوة في شخصية المعلم.
٤- المناهج التعليمية المحبطة لأذهان المتعلمين.
٥- تسييس التعليم .

* * *

وبعد إجمال ما رأيته سبباً رئيساً في إحباط العملية التعليمية من حيث إنها تؤتي ثمارها، بل هي في ضعف مستكين في نفوس المتعلمين إلا ما ندر، كان لا بد أن أوضح هذه الأسباب، وإن كانت هناك أسباب أخرى قد يراها البعض، أو أني قد أغفلتها لكوني أرى أنها ليست رئيسة، وعلى كل تقدير فإن هذه الأسباب أو غيرها من الأسباب الأخر إنما هي خلاصة لأمر رئيس، وهذا الأمرُ الرئيس هو الذي صنع ـ أو ابتكر ـ هذه الأسباب والدواعي لكي تتداعى العملية التعليمية وتكون بهذا الهراء، أو في هذا المستوى، رغم الضجيج الذي يروّجونه لها، ولاريب أنني سوف أشير في عُجالتي هذه إلى ذلك الأمر المهم،

ولا بد له من تمهيد قبل الوصول إليه ، فأقول :

لا شك أن موازينَ القُوى قبل نشوء الدولة الإسلامية كانت متأرجحة بين الفرس والروم وأتباع كل منهم، ولكل من أولئك جذور من عهود سابقة، وثقافات وعلوم متوارثة، فلما لمع عهد الدولة الجديدة بدأت الأعناق تشرئب إليها، وتتطلع إلى ما عند هذه الدولة الفتية، وما لبثوا أن داهموهم في عُقر دارهم، وفاجؤوهم بما عندهم من تشريع سماويّ وقانون ربانيّ، لمسوا فيه حلاً لجميع مشاكل الإنسان على مستوى طبقاته الحاكمية والمحكومية، ورأوا فيه تكافلاً من الجميع وشاهدوا فيه العدل والمساواة، وتنظيمَ شؤون الحياة بشتّى صورها وأشكالها، وعرفوا أن لهم دستوراً مقدساً ، هو كتابهم وسنة نبيهم التي أحاطت بجميع متطلبات الحياة، فنشدوا فيما رأوا الحرية والعدل والمساواة، والتنظيم في جميع مجالات الحياة، وعدم مصادمة الفطرة في قوانينه وأحكامه، إذاً فالدين هذا، وهؤلاء

الذين يحملونه هم الذين كانت البشرية بأجمعها تنتظرهم، فبمجرّد دخولهم إلى تلك البلاد دخل الناس في دين الله أفواجاً، وانتشر الإسلام في أرجاء المعمورة في وقت قياسيٍّ وزمن قصير، وما ذلك إلا لقناعة أولئك المحمول إليهم دين الله، الشامل للحياتين الدنيا والآخرة.

وكان هذا الانبهار والاتباع ناتجاً عن قناعة ؛ لأن دين الإسلام خاطب الفطرة التي فُطر عليها الناس، ونظّم الحياة التي يحب كل إنسان على وجه البسيطة، أن تكون على وفق قانون عادل ومنظم، و كان نتاج ذلك أن تعلّم أولئك المحمول لهم لغة الحاملين لهذا النور والنبع الصافي، وبرز منهم في لغة العرب نُصحاء وبُلغاء وعلماء، أصبحوا هم أعلاماً فيها ، فهذا **سيبويه، ونفطويه، وابن جني، والكسائي**، وغيرهم من أئمة اللغة، وهكذا في سائر الفنون العلمية ، حملها أولئك وبرزوا فيها سواء القراءة أو الحديث أو التفسير أو الفقه أو علوم القرآن ونحوها من سائر العلوم .

وهكذا اتسعت رقعة هذه الدولة الفتية، وكل بُقعة دخلت تحت سيطرتها كان الناس فيها يميلون لدين الإسلام؛ لأنه خاطب العقل والروحَ معاً، فكان ـ كما أسلفت ـ ديناً متكاملاً، ولاشك أن هؤلاء الفاتحين رأوا ما عند أولئك الأقوام الذين فتحوا بلادهم من ثقافات وعلوم من شتى المجالات، فما كان منهم إلا أن استفادوا من تلك العلوم التي لا تُصادم الدينَ ولا الفطرة، كعلم الطب والهندسة والفلك ونحوها، وكانت الدولة الإسلامية تشجّع ذلك تشجيعاً واضحاً في جميع مراحلها، وعندما استفادوا من تلك العلوم برعوا فيها وتفننوا تفنناً واضحاً وملموساً، وطوّروها وأصّلوها وبرز كثير منهم فيها، ولم يَبْقَ فن من فنون العلم إلا وبرع فيه المسلمون، وألفوا وصنفوا فيه، واكتشفوا فيه الاكتشافات، وبحثوا فيه البحوث، ونمت تلك الدولة الفتيّة، وبلغت في ثقافتها وعظمتها ما لم يبلغه غيرها في وقت قصير جدًّا، حتى ازدحمت عواصم الخلافة

بشتى أنواع الفنون، وبرعوا في مجالات العلم، وزخرت المكتبات بالتصانيف في كل فن مع عمق البحث وصلابة الموضوع، وبرزوا في مجال الفن المعماري، فكانت حضارة لا تضاهيها حضارةٌ في جميع الفنون، وركع الفن المعماري الرُّوماني وغيرُه لما تفنن به المسلمون في ذلك المجال، حيث خطوا المدن، وشيّدوا القصور، وشواهد ذلك لا تحتاج إلى توضيح وكتابة؛ لاستفاضته بدون شك ولا ريب، فالأندلس والمغرب العربي خير شاهد على ذلك اليوم وما بعد اليوم .

* * *

وبعد هذا التكامل في جميع مجالات الحياة، والاتساع الفكري، والنضوج الميداني، وانبهار أعداء الإسلام منذ بدأ الإسلام وإلى أن وصل المسلمون فيه إلى ما وصلوا إليه، واندحار أولئك وتقلّصهم في مساحة من الأرض، وطيّ ملكهم أمام ذلك الزحف الكبير، الذي خضعت له الرقاب، وأحبته الأفئدة التي كانت تحت سيطرة

أعداء الإسلام؛ لما رأوا في دين الإسلام ما ينشدونه من حرية وعدل واطمئنان ...إلخ.

وعندما رأى أعداء الإسلام هذا الكم الهائل من العلوم في جميع المجالات الدينيّة والدنيويّة، كان لابد أن يخطّطوا لإيقاف ذلك المد الإسلامي، والذي أضحى في مخيّلتهم أنه إن لم يتحركوا ضده فستكون نهايتهم إلى الأبد؛ لما يحمل الإسلام من مقوِّمات الحياة في الدارين، ولكون أهله متكاملين تكاملًا تامًّا في جميع شؤون حياتهم، فكان لا بد من كيد هذا العملاق الضخم المترابط، ولن يكون ذلك بالمواجهة العسكرية، وهو بهذه القوة المتينة التي أجبرتْهم على دفع الجزية عن يد وهم صاغرون، وإذا أراد العدو كيداً لعدوه فأعظمُ كيد له أن يكيده من داخله، وكان هناك داخل صفوف الإسلام كثير من أولئك الذين امتلأت صدورهم حنقاً عليه وعلى المسلمين، خاصة أولئك أصحاب الأغراض والذين كانوا يستعبدون الناس ويظلمونهم، ولم

يجدوا بُدًّا إلا الخنوع للعدل الذي لا يريدونه، والنور الذي تأباه عيونهم العمشاء، تحت سطوة الحق وقهر العدل، فتظاهروا بالخنوع والاستكانة حتى تحين الفرصة، ونسجوا خيوط المؤامرة لضرب المسلمين من داخلهم، وتحركوا في جميع الاتجاهات، فكادوا لتلك الدولة من أيام الراشدين، وزرعوا الفتن بين صفوف المسلمين، وما فتنة ابن سبأ اليهودي الذي أظهر الإسلام وأضمر اليهودية ببعيدة عن مخيلة كل مسلم، وفتنته التي أدت وأطاحت بالخليفة الراشد قتيلاً، وسبقها فتنة اغتيال الخليفة الثاني **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه ، واندسُّوا بين الصفوف ووجدوا لهم مرتعاً عند بعض أصحاب الأهواء التي أدت إلى خروج الخلافة من كونها خلافةً راشدةً إلى كونها مُلكاً عضوضاً، وكم كافح في سبيل بقاء الخلافة الراشدة، والبعد بها عن الملكية أميرُ المؤمنين **سيدنا علي** رضي الله عنه .

* * *

وهكذا انتقض الحكم من كونه خلافة راشدة إلى كونه مُلكاً عضوضاً، وهو من أكبر الوَيْلات على الدولة الإسلامية، بل هو أول المهالك، ثم إن أعداء الإسلام دسّوا دسائسهم في جميع مجالات حياة المسلمين، فزرعوا الفتن هنا وهناك، وأقاموا دعاة الباطنية لتشويه حقائق الإسلام في أموره العقائدية والتشريعية وغيرها، وكم عانت منها الدولة الإسلامية فدسُّوا من يضع الحديث على **رسول الله عليه الصلاة والسلام** ؛ ليزرعوا زعزعةً في أصل التشريع الثاني، ولكن كان علماء الإسلام لهم بالمرصاد، وهكذا فعلوا في العقائد والشرائع، ولكن كل ذلك اندحر بفضل جهود الأفذاذ من علماء الأمّة في كل وقت، وكم كابدت الأمة والأئمة وَيْلات هذه الدسائس في عقائدها وتشريعاتها، وكم حصلت من فتن تصدى لها العلماء، ودحضوها بالحجة والبرهان، وهذا لا شك أنه زعزعةٌ من الداخل في صفوف المسلمين من هذه الناحية، وكذلك زرعوا ما

يُزعزع الأخلاق ويفسد المكارم، فروّجوا لذلك النساء، وأدخلوا حب زهرة الحياة الدنيا في قلوب الناس، وصرفوهم إلى المُلهيات وزخارف الدنيا ومُوبقاتها، وتصدّى لهذا الباب علماءُ السلوك من أهل التصوف، وأعادوا للأمة توازنها الروحي، وانتزعوا من قلوب أتباعهم ومن نحا منحاهم حبَّ الدنيا وزهرتها، وما فيها من مُلهيات تميل بجموع المسلمين إلى الهاوية؛ لأنهم يصبحون عُبّادَ دنيا لا أهل رسالة أناطها الله بهم، وكم وجد أولئك المزعزعون من جبال رواس تصدت لهم على مدى التاريخ، وحفظت الأمة من التدهور التام، والانزلاق وراء الشهوات من علماء التصوف، الذين خطوا للأمة سيرها وأخلاقها وروحَها، ووضّحوا لهم الغاية من حياتهم، وأنهم أهل رسالة لا أهل لهو ولعب وخروج عن جادّة الدين، ولا أريد الإطناب في إيضاح هذا أكثر؛ لأن العُجالة لا تتسع له، ولكن تكفي الإشارة إليه.

وكُتُب الحوادث والفرق مليئةٌ بأمثال من زرعهم أعداء الإسلام لبثِّ الفُرقة بين المسلمين، فلا حاجةَ للإطالة بذلك، فإن أولئك المزروعين في قلب الأمة الإسلامية توصّلوا للزعامات السياسية في كثير من أطوار الخلافة الإسلامية، إبّان ضعفها وتفككها بسبب أولئك وغيرهم من أهل الأهواء والشهوات والنَّـزَوات، وتوصلوا للزعامة الدينية عن طريقٍ نشر أمور باطنية تُصادم الإسلام قولاً وفعلاً واعتقاداً.

* * *

وهذه الشوكة في قلبِ الأمة الإسلامية لا شك وأن لها تأثيرًا بالغاً وشراً مستطيراً، وقد أدرك هذا الخطر ومقداره من زرعه في قلب الأمة، وعند ذلك تهيأ لهم زعزعتها من داخلها، واعترى الأمة الإسلامية في غضون ذلك الوقت خنوعٌ وانحطاط، فكانت الضربة الثانية الموجهة لهم عندما حرك الأعداء أولئك الأغرار، الذين هم في صورة بشر ليس إلاّ، ولكن حقيقتهم

خاوية جدًّا عن كونهم بشراً، بل هم أنعام، لها خطرٌ جسيم، وليس لها أي دافع إنساني، ولم يسمعوا بحضارة حتى يحترموها، ولا ثقافة حتى يراعوها، ولا علوم حتى يقفوا عند منافعها، ويدركوا مدى أهميتها للبشر أجمع، أولئك هم التتار الذين وجههم الغرب المخطط لنكسة المسلمين، وتحقق لهم ذلك بطول ما زرعوه في داخل الأمة الإسلامية، ومن ثَمّ توجيه أولئك الوحوش البشرية، فدخلوا بلاد المسلمين، وسفكوا الدماء وقتلوا الكثير، حتى أنهم ليقتلوا مائة ألف في أيام، ودخلوا مدن الإسلام، وكانت الحضارة العلمية قائمةً فلم يُبْقُوا من تلك الحضارة شيئاً إلا وأحرقوه أو أغرقوه، حتى تغيّر نهر دجلة مما ألقي فيه من علوم نافعات لكل البشر، وحتى ردمت آبارٌ بتلك الكتب، وظلت النيران مسعّرةً بها أياماً، وعلى كلٍّ فما قاموا به من فظائع يندى لها جبين البشرية، ولم يكن ذلك بالأمر المعتبط ـ كما أسلفت ـ ، وإنما هو أمرٌ دُبّر بليل؛ للقضاء على

علوم المسلمين وثقافاتهم وحضارتهم، وهذه هي المرحلة الثانية لأولئك المدبرين للقضاء على دولة الإسلام بما فيها .

* * *

ثم أتت الخطوة الثالثة، وذلك بالحملات الصليبية لإضعاف المسلمين واحتلال أراضيهم، وكم جرَّت على العالم الإسلامي من وَيْلات، إذ ركّزوا فيها تركيزاً واسعاً على دمار الأخلاق عند المسلمين في ذلك الوقت، ولكن العملاق الإسلامي تخلص من أولئك الأعداء، وعادت الخلافة للدولة الإسلامية العثمانية، وأتت عليها عصور زاخرة، ولم يألُ أعداء الإسلام جهداً للإطاحة بهذه الخلافة، وخطط اليهود والغرب للإطاحة بها، وتم لهم ما أرادوا بواسطة الاتحاد والترقي وكمال أتاتورك وأتباعه.

* * *

وهكذا أتى الدور الرابع أو الخطوة الرابعة،

واستُعمرت بلاد المسلمين، وجاء دور المستشرقين في الدين وغَرَسهم المستعمرون؛ ليبحثوا لهم عن كيفية يستعمرون بها العالم الإسلامي وهم في أماكنهم؛ لأنهم يعلمون أن استعمارهم عسكريًّا وسياسيًّا بوجودهم لن يتم؛ لأن المستعمر دائماً منبوذ، وخاصةً عند أصحاب الرسالة الخالدة؛ لأنه يُصادم هديهم ودينهم وشريعتهم، فلا بد من محاربته وإبعاده والانقضاض عليه، وقد جرّبوا ذلك في الحملات الصليبية التي مهدوا لها؛ للقضاء على الإسلام فلم يستطيعوا.

لذا أرادوا استعماراً من نوع خاص يُخضع لهم دولة الإسلام وهم في أماكنهم، ويستعبدونهم وهم آمنون، ويحركونهم متى يريدون، وقد تم لهم ذلك بعد أعمال المستشرقين ومسح العالم الإسلامي لاستخراج كيفية يسيطرون بها على المسلمين، فكان نتاج فكرهم في هذه المرحلة أن الاستعمار لن يتم إلا إذا تم عن طريق استعمار

الأفكار، ولن يكون ذلك إلا بالوسائلِ التعليمية، ففتحوا لأبناء المسلمين المدارس، وعظّموها لهم، وجعلوا المتخرِّجين من مدارسهم أهلَ الصدارة في المجتمع، بل وجعلوا مقاليد الأمور بأيدي أولئك المتخرِّجين من مدارسهم. عند ذلك التفتت الأنظار إلى تلك المدارس، وكانت الغايةُ منها هدمَ الفكر الإسلامي المتحرر، واستعمار الأفكار بما يُملون عليهم من مناهجَ وعلوم في تلك المدارس، وهم قد عرفوا نبوغ علماء المسلمين في العصور كلها، وكيف كانت دراستهم للعلوم بأنواعها، وعرفوا أن تحررَ الفكر ونموَّ المعرفة والوصولَ إلى النبوغ هو بسبب تمسك المسلمين بكتاب الله ﷻ الذي هو دستورهم، وبسنة رسولهم المصدر الثاني لتشريعهم، فأرادوا طمس ذلك.

ومن أجل هذا سعوا لفك تلك الرابطة، وانقطاع أمة الإسلام عن عزهم الحقيقي، وشرفهم السرمدي، ورأوا أن بداية الاستعمار

الفكري هو وسيلة ناجحة لاستعمارهم للأبد، وأن تلك المدارس الاستشراقية أعطت ثمارها الأولى، فكان لابد من تعميمها على سائر بلاد المسلمين، لكن ضمن الروابط والأمور التي تُمكنهم من استعمار المسلمين قاطبةً، فهيّؤوا تلك المدارس التي لا يتخرج منها عبقريٌّ ولا مفكرٌ ولا نابغٌ ولا نابه، اللّهم إلا إن كان ذلك شاذًّا، والشاذ لا حكم له، ولعوامل أخرى، فوضعوا هذه المدارس والتي من أهم أعمالها :

١) الاستعمارُ الثقافي لأبناء المسلمين .

٢) تحطيمُ العقلية الفذّة والنابغة لأبناء المسلمين.

٣) فصل المسلمين عن دينهم.

ومن نتائجها :

أولاً: إبراز أنصاف المتعلمين الجاهلين الجهل المركب بأمور دينهم، ويُلاحظ ذلك في المتخرِّجين منها، فإن أحدهم لا يُحسن قراءة كتاب الله المقدس، الذي أمرهم **الله تعالى ونبيُّه عليه الصلاة والسلام** بتلاوته آناء الليل وأطراف النهار على

الوجه الصحيح فضلاً عن فهم معانيه.
ثانيـــاً : عدم ضبط أحاديثه ﷺ في النطق بها فضلاً عن تمييز الصحيح من الضعيف، أو استنباط الأحكام منها.
ثالثـــاً: الجهل بأحكام الدين المفروضة فرضيّةَ عين على المكلَّف.
رابعـــاً: الجهل الكامل بالأحكام في أمور المعاملة.
خامساً: الجهل بأحكام الدين في الأمور الاجتماعية.
ســادساً: انفصال الناشئة عن سلفهم، وعدمُ معرفتهم للقواعد السلفية .
سابعـــاً: قلب الحقائق في جميع الأمور التي قد يكون فيها خلاف .
ثـامنـــاً: تشويهُ قواعد الإسلام وزعاماته السابقة؛ لكي يتسنَّى لهم فصلُ الجيل عن القواعد الحاضرة التي أبقتْ على التمسك بالعهد الأول، وإذا ذهبتُ أعدّدُ لك المساوئ التي اشتملت عليها مدارسُ التبشير وجامعاتُه، والتي توصّلت إلى ثلب علماء المسلمين أهل السلوك والإرادة

ـ أهل التصوف ـ ، وإن أول الصيحات كانت منبثّة من تلك الجامعات؛ لطعن الأمة في أهل التحلّي بالأخلاق، الداعين إليها، فلن تفي بها هذه العجالة، ومن أراد الزيادة فعليه بمطالعة كتاب(**الحجة المؤتاة**) للقطعاني .

* * *

والحاصل: أن مساوئَ تلك المدارس والدُور كثيرة، وقد أثمرتْ عندهم ـ كما أسلفنا ـ في استعمار أفكار وقلوب المسلمين، حتى يبقوا في ضعفهم، ويأمنوا من خروجهم عليهم مرة أخرى، وأخذهم للقيادة العالمية منهم، كما حصل إبّان أول هذه الدولة إلى نهاية دولة بني عثمان .

لذلك أجمعوا على أن انتشار المدارس في جميع نواحي بلدان المسلمين، حتى في القُرى الصغيرة، والأدغال لابد منه، وحاربوا الزوايا والأربطة والأروقة والمعاهد و دُور العلم، التي يتخرج منها النابغون الفاهمون الذين يعلمون ما يُدار حولهم، ومن ثَمّ يحملون مشاعل الهداية والنور،

ويوضّحون الأمورَ لأمتهم، ويقودونها إلى بَرِّ السلام، وبعد محاربتهم لما تبقى من تلك الدُور، وذلك بتهميشها في الواقع حيث لا يكون لهم في المجتمع أيُّ دَور مهما كان، حتى اضمحلت تلك الدُور، وبقيت ممثّلةً في أفراد قلائلَ بالنسبة لمجموع الأمة كلها، ورغم ذلك كانت هذه الدُور تؤتي ثمارها، فكان لابد من محاربتها من قِبَلهم، فدسّوا لهم الدسائس، وأدخلوا أصحاب الأَفكار الشاذة وأحيوها، ومدُّوهم بالمال والرجال من حيث يعرفون أو لا يعرفون، واشتروا الضمائر، وطبعوا كُتب أولئك الشذاذ في الآراء، ومنهجوا لهم في التعليم العام، وفي التعليم المضاد للأربطة ودُور العلم الأخرى، كل ذلك؛ ليحصل لهؤلاء القلاقل تشويشٌ كبير هدفه إبعادهم عن أماكن التوجيه في المجتمع؛ لأن التوجيهَ بعد ذلك يورث القيادة، وهم يدركون ذلك تماماً، فهيّؤوا التوجيهِ في المجتمعات التي تُوجد فيها الدُور العلمية المُشار إليها لأولئك الشذاذ

ودعموهم بالجمعيات، ووسموهم بالخيرية، كل ذلك حربٌ على أفكار المسلمين المتحررة، والتي تربطهم بمصدرهم الأساسي الذي يشعُّ منه النور، وتكون منه السيادةُ والزعامةُ والقيادة للعالم كله.

* * *

وهذا الكلام الذي ذكرته يصدّقه الواقع، فواقعنا الذي نعيش فيه من الغوغائية ما لا يعلمه إلا الله، فقد استطاع أولئك ـ أعني أصحابَ الأفكار المناهضة لسلف الأمة ـ أن يبذروا الشقاق والاختلاف بين صفوف الشباب، وأن يَخلقوا التشويش والتردد في أذهان وقلوب الكهول، وهكذا فإن الأمر مدبَّر، وتُصرف عليه أموالٌ طائلة، كل ذلك؛ لغرض إحكام السيطرة؛ لأن المستعمرين شاهدوا نتاج أولئك العلماء الدعاة المصلحين الذين تخرجوا من دُور التعليم الصحيح المرتبط بالله، المتصل برسوله والمتسلسل في الأخذ والتلقي عن رجال لا تُلهيهم تجارةٌ ولا

بيعٌ عن ذكر الله، الذين نضج فكرهم، واستنارت طرقهم، فكانوا أقمارَ هداية للعالم، وشموع هدىً للناس، شاهدوهم عندما دخلوا إلى بلاد لا يُقالٍ فيها: **لا إله إلا الله**، فعاملوا أهلها فكانوا مثالاً للإنسان الخليفة الذي جعله الله في أرضه، فتأثّر بهم أولئك الأقوام في تلك الأراضي، ودخلوا في دين الله جماعات ووحداناً، ودانوا لذلك الدين، وأضافوا لرقعة الدولة الإسلامية كثيراً من الأراضي مسلمة موحِّدةً، أضعاف ما دخلت من أراضٍ وأناسٍ في دين الله على أيدي الفاتحين الأولين، فكان لابد للمستعمر من حرب أولئك عن طريق الفكر، ولكنهم لن يصلوا إليه، فكان عن طريق التشويش وصرف الناس عنهم.

* * *

وبعد هذا التمهيد البسيط يتضح لنا أن اليدَ الحقيقيةَ التي أدت إلى تَدَهْوُر المسيرة التعليمية في بلاد المسلمين، وهو الذي عمم المدارس ـ كما أسلفت ـ في بلاد المسلمين حتى في البوادي،

لا حُباًّ في نشر الوعي التعليمي ـ كما يزعمون ـ ولا حُبًّا في تعليم المسلمين، وإنما حُبٌّ في إحكام الاستعمار على سائر البلدان المسلمة، وكان من الضروري أن تكون هناك خطةً شاملةً للتعليم في ديار المسلمين، فحرصوا أولاً وأخيراً أن تكون المناهجُ وما يحصَّل من العملية التعليمية حسب ما يُملونه ويريدونه لا ما يريده المسلمون، وأرادوا أن يكون حاصلُ ذلك كلِّه الجهلَ التامَّ بأحكام الدين من قِبَل المتعلمين، والضعف المتدنّي للعملية التعلَيمية، وتحقيق أهداف كثيرة تخدم مصالح أولئك المستعمرين، لابد من إفرادها ببحث مستقل.

وبهذه الصروح التي شيّدوها أحكموا استعمارهم على بلدان المسلمين شرقاً وغرباً؛ لأن تقدم كل أمة في علمها ومالها، وفي فكرها ومُفكّريها، بل في نتاج جهابذتها الذين كانوا منارات الفنون في العصور الوسطى، التي كانت خلالها أوروبا تتخبط في عصر من الجهل

والضلال والجمود والتأخر في العلوم الكونية، بل وفي جميع العلوم إذ كانت ـ كما أسلفنا ـ الزعامة فيها لأولئك الرجال من المسلمين الذين حرروا فكرهم، وبنَوا مجدهم على أسس العلم والعمل.

إذاً فالرائد الحقيقي ـ أي: لكل زعامة وسيادة أرادت أن تكون زعامتُها وسيادتُها عالمية ـ هو العلم الذي علمت الدول الغربية منذ عهد الدولة الإسلامية الأولى أنّ السيطرة له، وقد عرفوا أنهم إن هم أبعدوا المسلمين عنه كانت لهم السيطرةُ والسيادةُ على العالم كله، وهذا هو الحاصل في واقعنا، ولا يمتري فيه اثنان، عند ذلك عملوا هذه المدارس بهذه الغُثائية الموجودة في الوقت الحاضر ونادوا إلى تعليم حيث لا تعليم ـ أعني به: ذلك الذي يخرج العباقرة في جميع الفنون ـ فوضعوا عند ذلك خطة ليصلوا لما أرادوا من خلال البرنامج التعليمي، ولكي يحصلوا على ما أرادوه من التعليم في ديار المسلمين، وهو

الضعف التعليمي مع وجود التعليم، سعَوا لتحقيق الأهداف التي تسير العملية التعليمية مع ناتج ما يريدونه هم، فكانت الأسباب التي جعلوها وذكرتُها في أول البحث على طريقة الإجمال، وسأذكرها الآن مع بعض التفصيل .

وقبل ذلك لا بد من الإشارة إلى دوافع الاستعمار، حيث إن الاستعمار الغربي هو مفتعل هذه الأسس والأسباب .

* * *

*** دوافع الاستعمار :**

١) إحكام السيطرة على بلاد المسلمين .

٢) أمنُ جانب المسلمين القيادي للعالم كلِّه والذي سبق وأن كان .

٣) أن ينشأ ناشئة المسلمين على ثقافات غير معادية للغرب.

٤) أن يقبلَ أبناء المسلمين كلَّ ما يأتي من جهة الغرب والأخذ به كحقيقة لا بد من التسليم بها.

٥) أن يضعُف الوازعُ الديني عند أبناء الأمة

الإسلامية .

٦- **بقاءُ السيطرة للغرب** على الأمة الإسلامية .

٧-**أن يتسنّى لهم الدخول إلى جسم الأمة الإسلامية**، وأخذ أيِّ مبادئَ بالتسليم والقبول من خلال الثغرات التعليمية وخرّيجي مدارس الاستعمار.

والحاصل: أن ما يَرنُو إليه الغرب المستعمر ـ ولفظ المستعمِر هنا بجميع مدلولاته، فهو استعمار للأرضِ ولمصالحها ولأفراد المجتمع ولثقافاته ولدينه وعقيدته...إلخ ـ السيطرة الكاملة الشاملة على الأمة الإسلامية بلاداً وأمةً وفكراً وتعليماً ومجتمعاً .

* * *

*شرح الأسس والعوامل التي أدت إلى ضعف العملية التعليمية في بلاد المسلمين:

١ - انعدام الإخلاص من قِبَل المعلِّم والمتعلِّم :

والإخلاص: هو ثمرة الجهد العلمي، وهو مطلبٌ رفيعٌ وأمرٌ بالغ الأهمية في كل أمر يدخل فيه الإنسان، وهو خلاصةُ وسرُّ الدين الإسلامي؛ إذ لا يَقبَل من أتباعه من الأعمالِ إلا ما أخلص فيها صاحبها، وكان عمله مخلصاً لوجه الله تعالى، ولذلك يقول الله تعالى ـ بعد ما عرض دينه وذم دين المشركين أهل الكتاب الذين كان دينَهم وعملهم مجرداً عن الإخلاص ـ ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾[1].

ومع هذا الأس المتين: ربى المعلم الأعظمُ عليه الصلاة والسلام أتباعه على الإخلاص في سائرِ حياتهم، وكما تقدم فإن المؤمن مطلوب منه **أولاً**: العلم.

(١) سورة البينة آية (٥).

وثانياً: العمل، ولا بد أن يُناط بالركنين ـ أي: العلم والعمل ـ الإخلاص؛ لأن العلم إذا جُرِّد عن الإخلاص كأن كان صاحبه يسعى إلى أمر مرذول، أو إلى شهوة من شهوات الدنيا، فمطلبه سُفلي لا عُلوي؛ لأنه بعلمه ذلك المجرد لا يريد إلا جرَّ منفعة لنفسه، عائدٌ ذلك النفعُ عاجلاً أم آجلاً، فإذاً هو لا يسعى من أجل دينه، ودينُه مربوط بأمته، فهو بعلمه ذلك لا يسعى من أجل أمته، فالإنسان بالإخلاص يكون عالميًّا؛ لأنه يرقى بأمته إلى العالمية، وإذا رقى بها إلى العالمية كانت لها السيادة في ميدان الحياة، والتقدم في مجال الأمم ونشر الدين وإقامته، وهذا شيء لا يريده أعداءُ الإسلام ـ كما أسلفتُ ووضحت ـ.

من أجل ذلك كان نتاجُ العملية التعليمية في نفوس الناشئة لا إخلاصَ فيه؛ لأن الأمور تصير إلى ما ذكرنا، بل ثمرتها التجردُ عن الإخلاص. إذاً فالمتعلم يَرنُو ويلحظ تحقيقَ أهداف له تعود منفعتها على شخصه، نعم إنه يتعلم ليحصل على

الشهادة، ماذا يعمل بها ؟!.. لكي يحقق لنفسه مستقبلاً مرْموقاً ـ لنفسه فقط ليس لأمته ـ إذاً فهي الأنانية لا العالمية، إنه لا يفكر في ذلك مطلقاً، أيّ أمة يفكر فيها المتعلم في هذه المدارس، إنها لا تخطرُ على باله؛ لأن الإخلاص الذي يغرس الانتماء للأمة مفقود، ومن هو الذي سيغْرس ذلك الإخلاص.. الأب.. الأم.. كيف وفكْرهما في ابنهما أن يكون مرموقاً هو بذاته ليحصل على شهادة يتقوت بها.. لماذا هذا ؟! لأنهم ربطوا العلم كله في تلك المدارس بالمادِّيَّات .. مادِّيَّات وشهوات وسفليات .. حتى لو كان يملك المال لن يصل إلى درجة المرموقية في المجتمع من وجاهة أو سُلطة إلاّ بذلك الطريق، إذاً فإن التفكير في سيادة الأمة وفي مجموعها منعدمٌ تمامًا، بل ولا يخطر على خلد أحد سواءً أكان معلِّماً أو متعلماً، بل لو تكلمتَ بذلك لعَدُّوه ضرباً من ضُروب الهَذيان.

* * *

ومن هنا يُلاحَظ: أن المجتمعَ كلَّه تجرد عن هذا الأصل الأصيل، وهو الإخلاص في الناحية التعليمية في هذه المدارس إلا من رحم الله، لذا تجد العبائرَ الآتية من المعلم الذي هو نبراس القدوة ... من الأب ... من الأم .. من الشارع ومن المجتمع بأجمعه، يهتفون بذلك المتعلم: (**ذاكرْ لتنجحَ، وإذا نجحتَ عملتَ وكنتَ مرموقًا**)، أهناك معلمٌ أو أبٌ أو أمٌ أو أحدٌ من أفراد المجتمع يقول للمتعلم : (**تعلمْ وثابرْ لكي تنفعَ أمتك**)؟ لا .. لا .. لا.

إن أعداء الإسلام يعلمون أن الأمةَ تتكون من الأسرة، والأسرة تتكون من الفرد، فصلاحُ الفرد صلاحُ الأسرة، وصلاحُ الأسرة صلاحُ المجتمع، وصلاحُ المجتمع صلاحُ الأمة، إنها حَيْثِيَّات وقواعدُ تبني بعضها على بعض، وهم يهدمونها بدراسة وافية وهم في أماكنهم من خلال المجتمع المسلم، ومن خلال الاستعمار الفِكري لبلاد المسلمين .

٢ـ فصل العملية التربوية عن العملية التعليمية:

وهذا أمر واضح، فالتعليمات الدائمة من قِبَل وزارات التعليم واضحة وجليّة في ذلك، حيث تركّز في منطوقها ومضمونها على العملية التعليمية دون التربوية، وأظنُّ أن المعلمَ في حد ذاته التعليمي لا ينقل للمتعلم إلا الأمورَ التعليمية التي تحددُ له كمًّا وكيفاً ليس إلاّ .

وهذا هو الذي أعد له المستعمر، ونحن إذا أردنا أن نُعرّف معنى التعليم عندنا نحن المسلمين فإنه: العلم المقرون بالتزكية والتي هي التربية، ومن أجل ذلك أرسل الله تعالى رُسُلَه ليُعلّموا الناسَ التوحيد، ويهذّبوا النفوس بالخوف من الواحد حتى تزكوَ الأعمالُ، وحتى يقترن العلمُ بالعمل مع الخشية الناتجة عن تأثير العلم، فالعلم لابدّ وأن يكون مؤثراً في نفس صاحبه، ولن يكون ذلك إلا إذا اقترن بالتربية، وإلا فما فائدة العلم المجرد؟.. اللهم إلا إن كنا نريد منه أمراً واحداً وهو الماديّة البحتة، التي لا تلتفتُ لجانب

الأخلاق، ولا لجانب التربية التي تسوق الإنسان إلى التهذيب في جميع أطوار حياته، حتى يتعامل مع الناس لكونه خليفة الله في أرضه، ولا يتعامل معهم من خلال الماديّات التي تُبنى على المصالح فقط.

* * *

إنّ هذا الجانبَ المفقودَ مفقودٌ في حد ذاته عند الغرب الذين بنَوا حياةَ أتباعهم على المادِيّات المجردة، حتى يتسنّى لهم السيطرة على أممهم، وحتى تصبح أمتُهم أمةً مجردةً إلا عن المادية، فهي تعيش من أجلها، وتعمل لها مجرّدةً عاريةً عن كل خُلق مستقيم، لذا سنح لهم أن يُطلقوا معنى الحرية الكاملة على تصرف الإنسان في مجتمعهم، طالما يمارس حياةً تخصه فقط لا تتعدى إلى غيره، فهو إذاً فارغ الفكر خليٌّ عن الآداب، مجرّدٌ عن الأخلاق في حد ذاته، يفكر كيفما شاء من غير ضوابط، ويعمل ما يريد من غير قوانين، طالما أنّ الأمر لا يتعدى إلى الآخرين، فهو عار تماماً عن

مقوِّمات الأخلاق، التي يحافظ عليها المجتمعُ المسلمُ حقًّا، إذاً فهُم يريدون أن يصلوا بالتعليم إلى هذا المستوى، ولولا أنّ الضوابط العُرفيةَ في المجتمعات الإسلامية تُصادم ذلك بعُنف لجعلوا حياة المسلمين مثل حياتهم، ولكنهم أفلحوا في تحقيق بعض النتائج من خلال التعليم المجرّد، ووصلوا إلى بعض الأمور التي يريدون أن يصلوا إليها ، وإن كانوا يتطلعون إلى أكثر من هذا، وإلاّ فما معنى المستوى المتدنّي في مفهوم الأخلاق في مجتمعات المسلمين الذي أدّى إلى تحرر المرأة ـ كما يزعمون، وكما يدّعونه تحرّراً ـ، وهو في الحقيقة تبذّلها وانسلاخها عن الحياء وعن تعاليم دينها، وخروجها عن المألوف كما هو مُشاهد، والمرأة هي التي يُدرّسُونها في المدارس ذاك العلمَ المُجرّدَ عن التربية الحقيقية، إذاً هناك انفصام في التعليم والتربية، حتى أنهم يُملون عليها تعاليمَ أخر، يُنادون بتبذّلها وسفورها ومساواتها بالرجل وغير ذلك من الشعارات.

والإشارة هنا إلى إفساد المرأة في ظل التعليم الزائف مفيدةٌ لما أراه من الناتج البليغ في ذلك، فالمرأة هي نصف الدين، ونصف العالم الإسلامي، بل أغلبه في تعداد سكانه، ولها في التربية التي عليها مدار الانتفاع مكانًا كبيرًا، ودورًا هامًّا، وكما قال الشاعر:

الأُمُّ مدرسةٌ إذا أعددتَها
أعددتَ شعباً طيّبَ الأعراقِ

وليته قال: (**أعددتَ جيلاً زاكيَ الأخلاق**) .

وقيل على اللَّهجة الدَّارجة:

ما نِصْلح إلا بالنساءْ الله يُصلحْ شانهـنْ

* * *

وقد لُوحظ الاهتمام بهن وتيسير أمورهن بدخول تلك المدارس أكثر من الأولاد، مما أدى إلى إفسادهن، فأين التعليمُ الذي أثمر إذا كان المجتمعُ وصل إلى هذا الحد؟!.. إن كان التعليمُ مع التربية ـ كما قد يقولُ البعض ـ، أو هي تربية من نوع آخر، لا كما قال الله تعالى في

كتابه عند إرساله سيد أحبابه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[1].

إذاً فالتزكية ركنٌ أكيد، وأمرٌ مهمٌّ خطيرٌ في حياة المسلم، وكونُها مع العلم أفضل؛ لأنه من غيرها لا يصلح كما قال الشاعر:

والعـــــلمُ إن لم تكتنفْهُ شمائلٌ
تُعلـيه كان مطية الإخفـاقِ
لاتحسبنَّ العلمَ ينفعُ وحـــدَهُ
ما لم يُتوَّج ربه بخـــــلاقِ

* * *

إذاً لابُدّ أن تكون التربية مقدمة ما يتلقاه ابتداءً من أول تمييزه حتى يتربّى على الأخلاق الفاضلة، والصفات العالية المقرونة بكتاب المسلم، وهو **القرآن الكريم المقدّس**، فهذا **النّبي الذي أرسله الله تعالى** لأولئك الذين وصفهم الله تعالى بالأمِّيَّة،

(١) سورة الدخان آية (٥٢-٧٢).

ووصفهم بالأمر الثاني وهو الضلال المبين، الضلال عن أَسَس التربية السليمة، والممنهجة على أساس تشريعيٍّ مستقيم، فأرسل لهم **النبيَّ عليه الصلاةُ والسلام** ليحثَّهم على العلم، ولكن مع التربية، فهو يزكيهم بالعلم، ويغرسُ نتائجَ العلم وثمراته في نفوسهم، حتى تزكوَ وتصفوَ وتعلوَ وترتفعَ، وتكون الأخلاق التي أرادها لهم مولاهم زاكية نامية في نفوسهم، وفي الحديث: قال رسول الله ﷺ : «**إنما بُعثتُ لأتمِّمَ مكارمِ الأخلاق**»[1] ، فلم يأتِ لهم بالعلم فقط مجردا كما يريدُ أولئك الأعداءَ؛ لذا حرص علماءُ الأمة في جميع مراحلها على أن يكون العلم للمتعلمين مع التربية، فخطَّطوا للعلم في شتى مجالاته كُتُباً يدْرُسُها المتعلم، ووضعوا له للتزكية ـ أي: للتربية ـ كتباً يتلقّاها قولاً مع ما يُشاهدُهُ من تطبيقها في حياة شيخه ومدرِّسه، فهو إذاً يتلقاها بالقول وبالفعل، مرسومةً في حياة مدرِّسه الذي يتلقّى

(١) متفق عليه .

عنه. فأين كتبُ التربيةِ وأساتذتها في المدارس التي يتلقّى عنهم الطالبُ تهذيبَ أخلاقه، ومعالجة أموره النفسية، حتى يترسّم بالأخلاق والآداب التي يطلبُها منه دينُه ومجتمعُه؟ أين المتعلمون عند أولئك الذين أخذوا العلمَ والعمل معه والتربية؟ يتخرّجون والآدابُ معهم، فتراهُم يحترمون من المسلمين الكبيرَ والصغيرَ، ويراعُون حقَّ الوالدين، ويراعُون حقَّ الجيران، ويراعُون حقَّ الأرحام، ويراعُون حقَّ أفراد المجتمع، ويراعُون حقَّ المسؤول، ويراعُون واجباتهم الدينية، يخافون الله في أعمالهم، وفي سلوكهم، وفي حياتهم، وفي خلواتهم، إنها الضوابط الإيمانية التي لا تزكو ولا تنمُو إلا بالتربية، وهو منهجُ الرَّعيل الأول والسلف الصالح، وبه سادُوا العالم أجمع، وبالتربية دخَل كثيرٌ من الناس حُبًّا في أخلاق هذا الدين، المتمثّلة في الأشخاص الذين يعتنقونهُ، فرأَوْا هذه الصفات الفاضلة المفقودة عندهم، وسألوهم عنها: مِن أين أخذتموها؟ قالوا : تعلّمْناها من

ديننا، وطبّقناها في حياتنا، فدخلوا في دين الله مُعجبينَ بذلك الدين، الذي جعل أتباعَه مثالاً للأخلاق الفاضلة الناتجة عن التربية السليمة.

ودعني هنا أتساءلُ.. فإن وجدتَ إجابات بالنفي ستعرفُ حقاً أن التربيةَ انفصلتْ تمامًا عن العملية التعليمية، وأدّتْ عند ذلك إلى ضعف التعليم؛ لأن التعليمَ المجرّدَ الذي لا يُمارس الطالبُ ثمارَه سيذهبُ أدراجَ الرياح، ولكن سيُثمرُ فرداً من أفراد المجتمع خالٍ عن التربية تماماً، وهو ما يريدُهُ الغرب المستعمرُ الذي عرف أن شرقَ آسيا وإفريقيا دخل فيها الإسلام بالشخصيات الإسلامية ذات الأخلاق الدينية، المتربَّية على مبادئ الإسلام، والتي تمثّل فيهم الإسلامُ قولاً وفعلاً واعتقاداً؛ لذا أرادُوا محوَ هذه الشخصية التي تلقت العلمَ معَ التربية، وأثّرَ فيها العلمُ المدموجُ بالأخلاق الناشئة عن التربية والتزكية، فكان من عمَلهم أن يكون العلمُ في المدارس بلا تربية، وهذا أوان الشروع في الأسئلة

التي أسوقُها كشاهد لمَا أقول، **فأقول:**

هل تُربِّي المدارسُ تلاميذها على خوف الله؟.. وهل تُربّيهم على تقوى الله؟.. وهل تغرسُ في نفوسهم محبة الله ومحبة رسوله ﷺ؟.. وهل تغرسُ في نفوسهم محبة الخير وأهله؟.. وهل تُعلمُهم أن لدين الإسلام حُرمة، وتزرعُ في قلوبهم تعظيمَه وتعظيمَ شعائره؟.. وهل تزرعُ في نفوسهم المسامحة والتَّعاون؟.. وهل تُربِّيهم على احترام الآخَرين؟.. وهل تحُثُّهم على طاعة الوالدَيْنَ وعدم عقوقهم؟.. وغير ذلك من الآداب التي ينبغي غرسُها في نفس المتعلم، وهي كثيرة، وإن المراحل التي يقطعُها الطالبُ في سنوات تعليمه كثيرة، وهي حَريَّةٌ لو كانت موضوعة على أسس التربية والتعليم أن يتخرَّجَ منها الطالبُ مثالاً للأخلاق الفاضلة، والصفات العالية، حيث يحقُّ له عند ذلك أن يدعُوَ الآخرين بعمله وأخلاقه، لا بمقالِه ولسانه.

* * *

٣- المعلِّم الذي لا بُدَّ وأن يكون عاملاً مهمّاً في حياة المتعلم:

إذْ هو الأسوةُ الحقيقيةُ للمتعلم في جميع حياته، وهو الأسوة الحسنة، وقد وجّه الله تعالى خلقه إليها عندما أرسل لهم معلّماً، فقال: ﴿ **لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ** ﴾[١]، وهو عليه الصلاة والسلام القائل: «**إنما بُعثتُ مُعلّماً**»[٢]، وهو القائل أيضًا: «**العلماءُ ورثة الأنبياء**»[٣].

إذاً فلا بُد أن تكون شخصيةُ المعلم أُسوةً لتلميذه، فعلى المعلّم أن يكون مثالاً كاملاً للأخلاق الفاضِلة، والأسوة الحسنة في قوله وفعله، فهو المثال الأعلى للمتعلم في سلوكه. لذا يجب عليه أن يكون معتدلاً مُتّزناً في أقواله مُوجِّهاً في أفعاله، فإن الله تعالى لما أرسل معلّمَ البشرية، وأمَرهُ أن يأمرَ بالدعوة إليه وجّهه لكريم الخصال، ونبيل الفعال، والاستقامة التامة في جميع الأطوار،

(١) سورة الأحزاب آية (٢١).
(٢) رواه ابن ماجه..
(٣) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه .

وهو وإن كان المخاطَبُ **عليه الصلاة والسلام** بذلك فإن المُرادَ منه أمتُه على الحقيقة، وبالأحْرى مَنْ تصدّى للتعليم، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * ﴾[1].هنا أمر بالتعليم ، وبعده التوجيه للاستقامة؛ ليكونَ قوله وفعله في غاية الارتفاع الذي يستلْهِمُ منه المتعلمُ أخلاقه ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ * وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ * وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ * ﴾[2].

فشخصيةُ المعلم عملٌ لكل ما يقوله وينصحُ به، ويظهر أثره في شخصه؛ ليوافقَ قوله فعله مع التحلّي بالصبر الكامل مما يلاقيه في المجتمع، سواءً أكان ما يُلاقيه من المتعلّمين منه من جفاء وصدود وسُقم في الفهم ونحو ذلك، فالصبرُ شعارُه، وحسنُ الخلق سنتُه، فهو غايةٌ في الشخصية الفذّة التي تتعامل مع أولئك المتعلمين؛ لينعكسَ شخصُه في شخصياتهم، فيتقمّصوا شخصيتَه المستقيمة، ويكونَ تأثيرُ

(١)سورة المدثر آية (١-٢).
(٢)سورة المدثر آية (٣-٧).

العملية التعليمية والتربوية مُنعكساً على المتعلِّم من خلال معلّمه، وإذا ما فُقدت هذه الأسوةُ في شخصية المعلم فتراهُ متناقضاً، فقولُه في غاية من النباوة، وألفاظه في غاية من القذارة، وأفعاله بعيدةٌ عن علمه الذي يحمله، فهو يُصوّر صورةً منعكسةً تماماً عما يحمله من علم، فالانفصامُ في شخصيته واضحٌ جدًّا.

* * *

ومن هنا يظهر الأثرُ البالغُ على المتعلم، ومنه يكون التعليم كالحرفة أو كالمهنة، وحتى الحرفةُ والمهنةُ لا بد فيها من الأمانة، وإلا كانت في غاية من الرَّكَاكة .

فإذا وصلنا بالتعليم إلى أنه حرفةٌ أو مهنةٌ كما يفسّرونه في الوقت الحاضر، فقد وصلْنا إلى الانعدام الكامل للأسوة الحسنة، وهذا هو الذي يريده المستعمر، وقد وصل إلى بُغيته، كيف وقد استقرأ المستعمرُ تاريخ الإسلام وسيرته وحالاته، ابتداءً بالمعلم الأعظم عليه الصلاةُ والسلام الذي

انطبعت تعاليمُه في نفوس أصحابه، وانعكست شخصيّتُه في شخصياتهم؛ لأنه كان المثل الأعلى لهم، وفيه الأسوةُ الحسنةُ الحاويةُ للفضائل كلِّها، وهكذا كان التبليغُ منهم لمَن بعدهم، فكانوا مثالاً للأسوة الحسنة، فالمريدُ أوالتلميذ نبراسُه الأعظم هو معلمُه، يستقي منه المعرفة مع الأخلاق والعمل، فينشأ المعلِّمُ مُرتبطاً بمن تعلم منه، والمتعلم مرتبطٌ ومتأسٍّ بمن تعلم منه، وهكذا رابطةُ الاتصال إلى **الحبيب** ﷺ ، القدوة الأولى، والأسوة العُظمى، فلا انقطاعَ في الأخذ والتلقي، ولا في السلوك والعمل، ومن هنا نتَج الرجال، وكان منه الأفذاذ الذين لا يريدون بعلمهم وعملهم إلا الله والدارَ الآخرة، فصلح بالمعلم والمتعلم المجتمعُ الإسلامي، وسيطر عليه الصلاحُ، وتحقق له الهدف الحقيقي من عيشه في هذه الحياة، فهو يُحقق هدفاً معيّناً في حياته، وهو نشرُ دينه وهداية الناس، فحياتُه لها هدف ومعنى، لا مجرد العيش من أجل الأكل والشرب وجمع

الحُطام، وهذا مدعاةٌ في حد ذاته أن يستشعرَ في نفسه دائماً أبداً أنه صاحبُ رسالة لا بُدّ أن يُبلغَها للناس كافة، وأنه صاحبُ مسؤولية لا بُدّ أن يُنفذَّها، ويقومَ بها أحسن قيام، فهو جنديٌّ لله ورسوله يجب عليه أن يقومَ بما يُمليه عليه واجبُه تجاهَ **مولاه ورسوله عليه الصلاة والسلام** ، فلا بُدّ وأن يُبلّغَ تلك الرسالة للناس كافة، وهذا كلُّه من الأسوة الحسنة، والارتباط الوثيق بينه وبين مُعلمه الذي يسلسله **بالنبي** ﷺ .

وأمْرُ تحمّل المسؤولية تلك، والرسالةُ التي أشرنا إليها قام به المتعلمون في كل وقت وحين، وحملوا مشاعل الهداية للناس، وأعلموهم أنهم أصحابُ دعوة عالميّة شاملة صالحة لكل زمان ومكان، ووقت وحين، ودخلوا فاتحينَ لمشارق الأرض ومغاربها؛ لتبليغ رسالات **ربهم** ﷻ.

وهذا هو الخطرُ الفادحُ البليغُ على الغرب وأهله، فهم يريدون أنصاف المتعلمين، بل أقل من ذلك كالجهال الذين يدَّعون العلم، لا

يريدون المتعلمين حاملين تلك الرسالات خوفاً من أن ينتهوا أمامهم؛ لأن الزعامةَ الحقيقيةَ ستكونُ لمن استخلفه الله في الأرض، وهو الخليفةُ بحق وصدق، فسعَوا حثيثاً أن يُوصلوا المتعلمين في بلاد المسلمين إلى ما وصلوا إليه، بلا أسوة ولا ارتباط بين المعلِم وتلميذه، ولا سلسلة اتصال متواصلة، تربطُهم بمن تُستمدُّ منه الأسوةُ والأخلاقُ والصفاتُ العالية، إذاً فهو الانقطاعُ والابتعادُ عن الهدي الحقيقي، والنور المُحمّدي، فيجبُ التنبُّه لذلك .

❋ ❋ ❋

٤ ـ المناهجُ التعليمية المُرهِقةُ والمُجهِضة لذهنِ الطالب :

إن الكمّ الهائلَ من المناهج التعليمية في المراحل التي يتقلب فيها الطالبُ تحتاج إلى مراجعة وتصحيح وتنقيح لما يتعلمه أبناؤنا، خاصةً الأطفال منهم من معلومات مغلوطة، تهدف إلى تشويش صور واضحة جليّة عند كل ذي عقل، صور جعلها الله في عقول أبنائنا، فهي موجودة في أذهانهم، لكن لصغر سنهم كانوا غيرَ مُدركين لها، الأمرُ الذي جعل المستعمرَ أحرص ما يكون على تشويشها قبل أن يكتمل إدراكه لها، حتى إذا اكتمل كان المستعمرُ قد فعل ما يريدُه من خدش وتشويه للصورة، وقد لا يكون له ذلك الأثرُ الكبيرُ في الوقت الحاضر، ولكن يُخشى منه فيما بعد، فهذا الخدشُ سيكبر حتى يُصبحَ فجوةً في عقله، تحمل في داخلها ما يترتب على هذا التشويه من أفكار خاطئة، وتحتاج إلى تربويّين ينظرون فيها ليرفعوا الإحباط والإرهاق والإجهاض

الذي زرعه ذلك المستعمر، وسرْنا على منواله، ولم نلتفت إليه في تلك المعلومات المتزاحمة، والمناهج التعليمية الضخمة وغير المرتبة، إذ هي في الحقيقة هدرٌ وإهدارٌ لقريحة الفهم والذكاء عند أبنائنا، لا تُوَسِّع منهم المدارك، و لا تُنتج نوراً في الفكر، بل هي مقصورةٌ في وضعها على أن يبقى الطالبُ أسيرًا لها ثقيلة عليه، لا يتفاعل معها، إما لكمّها المتراكم، أو لتعقيدها، ومع هذا فكلُّ أبنائنا لا بُدّ أن يدرسوها بهذا التعقيد، وهم لا يحتاجون إليها في حياتهم اليومية، ولا في أعمالهم التجارية، فمن نحا نحو التجارة ماذا أفادته دراسةُ الفيزياء والكيمياء وعلم الأرض؟!... ومثله كثير، إذاً لماذا هذه الدراسة في المواد كلِّها بكمّها وتعقيدها، وكونُها واجبة على أبنائنا منذ نعومة أظافرهم، يحملون كمًّا كبيراً من المواد الدراسية تُشتِّت أذهانهم، وتُطفئ شُعلة الذكاء فيهم، لماذا هذا كله؟.. المتعلمُ مُجهَدٌ بهذا العبء الكبير، بهذه المواد، والأسرةُ والمجتمعُ يعانيان

من ذلك كله؛ لأنهم يريدون أن يجتازَ أبناؤهم مراحل التعليم الثلاث، فهم في شغل شاغل وهَمٍّ متكامل، ولماذا هذا كله؟.. إنه لعدة أمور أتصورها في هذه النقاط :

(١) **انحصارُ ذهن المتعلم** في هذه المواد .

(٢) **هدرُ طاقته الفكرية** في تعقيدها وصعوبتها.

(٣) **اشتغال المتعلم** بهموم المواد التعليمية .

(٤) **إشغال الأسرة**، ومن ثَمَّ المجتمعُ بذلك الهم.

(٥) **إجهاض النبوغ الفكري**، والصفاءِ الذهني عند أبناء المسلمين .

(٦) **تشتيتُ الفكر** في تلك المواد، بحيث لا يُحسن أيًّا منها .

إذاً فهذه العمليةُ مقصودةٌ بحدِّ ذاتها، وهي اشتغال المسلمين عن رسالتهم الحقيقية بهذه الحياة التعليمية العقيمة، وأقول عقيمة؛ لأن هذه المراحل لا بُدَّ وأن يمرّ بها كل طالب، ولما هذه المراحل بسنواتها الطويلة، وهي اثنتا عشرة سنة كاملة من حياة الطالب، يدرس فيها ما لا

ينفعُه في حياته الدُنيويّة، فإنه إن أراد أن يتخرّج طبيباً فما فائدة دراسته الرياضيّات وعلم الأرض ونحوها ؟.. وإن كان يريدُ أن يكون مهندساً فما فائدة دراسته الجغرافيا والأحياء وعلم النفس ونحوها؟.. وقسْ على ذلك .

والسؤال هنا : مَن وضع هذه المناهجَ، وهذه المراحل لأبناء الأمة المسلمة؟ ومن المؤسف جدًّا أن رسالتهم الحقيقيةَ التي ينبغي الاهتمام بها ليس لها مجال في هذا الكمّ الهائل من المناهج وتعدادها وضخامتها إلا قليلاً جدًّا، فالمادةُ العلمية لمواد دينهم لا تكاد تُذكر عند ذاك الكم الهائل، أليس هذا مقصوداً؟. ومن هنا يتضح لنا حل لهذه القضية، وهو تدريسُ المتعلمين أولاً أمورَ دينهم الواجبة والمفروضة عليهم بالتعيين، وما به يستقيم اللسانُ من علم النحو وقراءة القرآن، وعلى الوجه الصحيح، حتى يترسَّخ ذَلك عند المتعلم، ويكون فاهماً واعياً، ومن ثم يتَّجه إلى دراسة ما يريده من المهن لأمر دنياه .

٥- تسييس التعليم :

وهذا الأمر لا شكَّ فيه ولا ريب، فإن كلَّ دولة تُسيِّس التعليم بما يوافقُ سياستها، فإن كانت سياستها شرقية أو غربية فمنهجيّة التعليم على ذلك الأساس، فهي تعمِّق في تعليمها نظاماً معيّناً، وتربط أبناءها به، وكأن ذلك أجدى وأنفع، فلو كان بدل تسييس التعليم: أسلمة التعليم عندها ستكون استقلاليةُ العالم الإسلامي، وبروز رسالته للأمم المعادية له، ولكن بذلك التسييس كان العالمُ الإسلاميُّ تابعاً لا متبوعاً، ومن أجل ذلك لم يتكلم التعليمُ عن توحيد العالم الإسلامي، ولا كيف كانت الأمة الإسلامية تحت راية واحدة، وشعار واحد -وهو الإسلام-، ودولة واحدة، وقيادة واحدة، ولا فوارقَ بين أبنائه، ولا حدودَ بين أتباعه من شرق البلاد إلى غربها، حضارتهم الحقيقية هي الإسلام، لا الحضارة المزعومة التي تغرسها الدولة في كتب التاريخ، ويُدرّس على أنه هو

التاريخ، إن تاريخَ أمة الإسلام هو تاريخُ نبيّها وأصحابه ومَن بعدهم إلى حاضرها، إن تاريخَ الدولة الإسلامية والرائدة من أول عصرها لا بُدّ أن يُدرَّس ويؤتي ثمارَه، إن تاريخَ الخلافة الإسلامية الواحد هو الذي ينبغي أن يُروّج في مدارسنا ومجتمعاتنا، ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾[1].

* * *

(١) سورة الأنبياء آية (٩٢).

خاتمـــــة

نسأل الله حسنها.. لعلّي في هذه العُجالة لم أستوف أموراً كان لابُدّ وأن أتطرّق إليها، أو أنني فيما كتبتُه لم أحسن عرضَه، أو أنني قد أكونُ فيه عند البعض متحاملاً أو نحو ذلك، فعلى كل حال هو بحثٌ موضوعٌ للمناقشة، وجولان الفكر فيه؛ لأن مسألة العملية التعليمية والضعف الناتج فيه لا جدال فيها، فمن هنا نعلم أن المشكلةَ واقعة، ومتفقون على وقوعها، لم يَبْقَ إلا التشخيص في سببها، هذا يختلف فيه من واحد لآخر، وإظهارُ القصور هو المراد عندٍ الجميع، إذا كانت هناك خطواتٌ جادّة لعمل حلٍ لها، وللأمانة فهناك من الإخوة التربويين يريدون لأمتهم النهوض والقيام والانطلاق والتحرر عن الجمود التعليمي الذي أملاهُ علينا الغير، يريدون أن يخرجوا بأبناء الأمة إلى التمسك بدينهم، وعدم الجهل به، وانتفاء الجهل عنها، لذلك

أسَّسوا صُروحاً للعلم خاصةً فيما يخدم الشرعَ الشريف من معاهد أو جامعات، وهي بحق تقومُ على المتانة العلمية، وثراء المنهج التعليمي، وحبَّذا الارتباط بين المتعلم والمعلم فيها على قاعدة السلف الأول.. ارتباط التلميذ بشيخه .

* * *

أسأل الله للجميع التوفيق، ولأبناء الأمة الهداية والاستقامة، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كان الفراغ منه ظهر يوم الأحد ٢٣/ ٣/ ١٤٢١هـ
بالمدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة وأتم التسليم.
كتبه الراجي من الله العطية الهنيّة:
محمد بن علي بن محمد باعطيّة
عفا الله عنه وبلغه كل أمنيّة

الفهرس

المقدمة..... ١
دوافع الاستعمار..... ٢٥
شرح الأسس والعوامل التي أدت إلى ضعف العملية التعليمية في بلاد المسلمين ٢٧
١-انعدام الإخلاص من قبل المعلم والمتعلم... ٢٧
٢-فصل العملية التربوية عن العملية التعليمية.. ٣١
٣-المعلم الذي لابد وأن يكون عاملاً مهما في حياة المعلم..... ٤٠
٤-المناهج التعليمية المرهقة والمجهضة لذهن الطالب..... ٤٦
٥-تسييس التعليم..... ٥٠
خاتمة..... ٥٢
الفهرس..... ٥٤